آراء وأنباء

بعض المكتبات القيمة الخاصة

التى كانت بمصر فى هذا العصر واندثرت

بقلم : أحمد خيرى

إن الفكرة الموفقة التى نفذها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بتصوير أهم المخطوطات المفرقة فى خزائن الكتب المختلفة بين شرقية وغربية وأجنبية وعربية حرص مؤسسوها على اقتناء ذخائر ما ألفه علماء الإسلام — هذه الفكرة فضلا عما فيها من جمع هذا الشتات فى القاهرة فإن فيها حفظ تلك الكنوز من الضياع . وإنى كلما أتذكر بعض المكتبات الخاصة القيمة التى تبددت — وكم تبدد من الكثير الذى لا أعرفه — كلما تذكرت ذلك زاد سرورى بتنفيذ فكرة تصوير هذه المخطوطات سائلا الله تعالى التوفيق للقائمين على التنفيذ .

وأذكر هنا بعض المكتبات التى كانت زاخرة بالذخائر والنوادر ثم لعبت بها حوادث الدهر وصروفه فأصبحت كأن لم تكن .

١ ـ مكتبة الشيخ عثمان عسل بالقاهرة

كان الشيخ عثمان عسل من سراة القاهرة . وكانت له مكتبة حافلة بنوادر المخطوطات والمطبوعات ، وسمعت أنه كان بها مصحف من عهد الفاطميين . وقد تبددت هذه المكتبة وبيعت للوراقين ، وصدق عليها ما كان يقوله صاحبها . فقد كان يختم كتبه بخاتم كبير يتوسطة اسمه ويحيط به البيتان الآتيان : —

كتابُ علمٍ حُـــزْتُهُ   يَحْــلوُ مَذاقاً كالعَسلْ
كيف أَقــــول إنـــَّه   مــلكى وللـــــهِ الدُّوَل

٢ ـ مكتبة الشيخ عبد المعطى السقا بالقاهرة

ذكر هذه المكتبة الفيكونت فليب طرازى فى مؤلفه (خزائن المكتبة العربية فى الخافقين). وأشار إليها إشارة عابرة مع أنها كانت أولى بالإسهاب. ولعل ذلك لعدم إلمام الرجل بما كان فيها من مخطوطات كان بعضها يرجع إلى القرن الخامس، وكان الشيخ عبد المعطى حريصاً على اقتناء الكتب محافظاً عليها. فلما مات تصرف فيها ورثته وبيعت ذخائرها بأبخس الأثمان بالنسبة لقيمتها الحقيقية. ولما طبع كتاب الكونت طرازى لم يكن لمكتبة الشيخ عبد المعطى أى وجود. ومما كان فيها نسخة من كتاب الأموال لأبى عبيد المتوفى سنة ٢٢٤هـ عليها سماع تاريخه سنة ٥٧١. وقد كان المغفور له السيد محمد أمين الخانجى شيخ الوراقين فى زمانه المتوفى سنة ١٣٥٨هـ يكثر من ذكر ما كانت تحتويه هذه المكتبة من المخطوطات البعيدة التاريخ والتى كان واسطة فى بيع معظمها لمكتبات أوروبا وأمريكا.

٣ ـ مكتبة نور الدين بك مصطفى بالقاهرة

كان المغفور له نور الدين بك مصطفى من هواة جمع المخطوطات. وكان بمكتبته مخطوطات باللغات العربية والتركية والفارسية وقد زينت صفحات معظمها بصور لما تحتويه بأيدى مشاهير الفنانين الذين يجيدون تلك الرسوم والتذهيب وما إليه من زخرفة المخطوطات. وكانت مكتبته طرفة بين مكتبات القاهرة. وكان محباً لها، فخوراً بها. ولكنه اضطر فى أواخر أيامه إلى بيعها. ورأيت بعضها بمكتبة الخانجى منذ نحو ثلاثين سنة ولكنه كان يبيع الكتاب بما يقرب من قيمته. فتبددت قيمتها الأدبية. ولعله الوحيد بين من تبددت مكتباتهم الذى لم يبعها بالبخس. وربما كان هو الذى ذكره طرازى باسم مصطفى نور باشا المتوفى سنة ١٣٥٦هـ فجميع الصفات التى ذكرها تنطبق على نور الدين بك مصطفى. ولم أسمع بمصطفى نور باشا هذا. كما أن طرازى ذكر خبر هذه المكتبة نقلا عن الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف، فلعل الأخير قلب الاسم ومنح صاحب المكتبة رتبة الباشاوية.

٤ ـ المكتبة الوفائية بالقاهرة

ذكر هذه المكتبة طرازى تحت عنوان (سائر المكتبات الإسلامية الحديثة فى القاهرة) وذكر أن فهرسها مطبوع سنة ١٢٦٨ هـ والذى أعرفه أن مكتبة السادات الوفائية التى كانت فى قصرهم المشهور بالقرب من حى السيدة زينب رضى الله عنها قد ضاعت. ورأيت بقاياها منذ نحو ثلاثين سنة معروضة للبيع فى مكتبة الخانجى. وبهذه المناسة ذكر طرازى مع المكتبة الوفائية المذكورة المكتبتين الآتيتين : ـ

(أ) المكتبة البكرية ومقرها فى سراى الخرنفش.

(ب) مكتبة الدردير نسبة إلى سيدى أحمد الدردير المتوفى سنة ١٢٠١ هـ ومركزها فى المسجد الذى دفن فيه بالكحكيين بقسم الدرب الأحمر.

فإذا كانت المكتبتان المذكورتان لم تعبث بهما يد الزمن فإنى أرجو أن يقوم معهد المخطوطات بالاطلاع عليهما وتصوير ما فيهما من النوادر والأمر لا يقتضى كثير عناء فإنهما فى القاهرة.

٥ ـ مكتبة السندريسى بالاسكندرية

كان المرحوم الشيخ حسن شحاته السندريسى من علماء الإسكندرية. وكانت له مكتبة قيمة. وهى وإن كانت صغيرة بالنسبة إلى غيرها فقد كانت تزيد قليلا على ألف كتاب ـ إلا أنها كانت حاوية للغرائب والعجائب وأذكر أن جميع أمهات كتب اللغة المطبوعة كانت فيها مثل لسان العرب وتاج العروس والصحاح والقاموس والمخصص وغيرها كما أنها كانت حاوية لنوادر المخطوطات. أذكر منها اللالىء الفريدة شرح القصيدة للفاسى مخطوط فى أوائل القرن الثامن فى مجلدين كبيرين، شرح بهما قصيدة الشاطبى فى القراءات. ونسخة من النشر لشيخ القراء ابن الجزرى مخطوطة بخط أحد تلامذته فى منتصف القرن التاسع وهى فى مجلد كبير بخط جميل. ومجموعة حاوية للمتون المختلفة التى كانت متداولة فى القرن الماضى والمجموعة بخط

الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة ١٢٥٠هـ ، وغير ذلك كثير من النادر النفيس . ولما مات صاحبها صبر ورثته مدة قليلة ثم عرضوها للبيع فبيع معظمها فى أواخر سنة ١٣٥٤هـ ، وبعد بضعة أشهر باعوا الباقى ولم يبق منها إلا الذكرى .

٦ ـ مكتبة جامع الشيخ ابراهيم باشا بالاسكندرية

يعرف هذا المسجد بجامع الشيخ . وبلغ من شهرته أن بعض أهل الإسكندرية إذا أراد أن يصف ميدان المنشية لمن لا يعرفه قال له بقرب جامع الشيخ . وقد أنشأ هذا المسجد فى أواسط القرن الماضى الشيخ إبراهيم باشا المغربى الأصل . واختلف فى كلمة باشا فقيل إنها لقب الرجل . وقيل إنها رتبة تكريم . وكان ثرياً عالماً . فأخذ فى إلقاء الدروس بمسجده يعاونه جماعة من العلماء ، وتوارث وحيده ثم أحفاده التدريس فيه حتى انتهى به الأمر بعد مدة وجيزة إلى أن صار أزهر الإسكندرية وسمى الجامع الأنور . وبلغ عدد طلبته أكثر من ستمائة طالب وهو عدد كبير فى ذلك الوقت . فلما أنشأت الحكومة معهد الإسكندرية قبل أكثر من ستين سنة انتقل معظم علماء وطلاب جامع الشيخ إلى المعهد الحكومى وبقى فيه عدد قليل جداً لا يكاد يذكر من الطلبة ، يقرأ عليهم بعض العلماء الفقه على المذاهب وبعض الدروس محافظة على المظهر وتنفيذاً لشروط من وقفوا أموالهم على هذا المسجد . وقد درس فيه كثير من مشهورى العلماء . وكانت لهذا الجامع مكتبة كبيرة حافلة بمختلف الكتب بين مطبوعة ومخطوطة وفى جميع الفنون . وكانت فيها مجموعة عجيبة من الدوى (جمع دواة) النحاسية . والإسطرلابات وكل منها على هيئة خاصة . وبالجملة فقد كانت كنزاً من كنوز العلم بالإسكندرية . ولما تقلص ظل العلماء من المسجد أغلقت المكتبة . وقبيل الحرب العالمية الثانية بدا للقائمين على المسجد أن يعملوا لها الفهارس التى تكشف عن مكنوناتها ، ثم قامت الحرب وأثناء الغارات الجوية على الإسكندرية سقطت عليها قنبلة مباشرة فدمرت المبنى وأتلفت الكتب . وما نجا من التدمير لم ينج

من عبث أيدى من لا خلاق لهم . وأخيراً لم يبق منها إلا ما يشبه رسوم الأطلال . وقد صور معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بعض ما بقى من نفائس مخطوطاتها . والجزء الباقى من المكتبة اليوم إذا قيس بما كانت عليه يجيز لنا أن نقول إنها تبددت وإن كان يخفف من أثر هذا التبديد البقية الباقية منها . وحبذا لو أولاها ولاة الأمور ما تستحقه من العناية والرعاية .

٧ ـ مكتبة أحمد دبوس • بنكلا العنب بحيرة

أنشأ هذه المكتبة أحمد دبوس (بك) . وهو من أسرة شهيرة بناحية نكلا العنب مركز إيتاى البارود محافظة البحيرة . وقد كانت كثيرة المطبوعات نادرة المخطوطات . ولكن جل مطبوعاتها كان مما طبعته أوروبا فى القرن الماضى وفى صدر هذا القرن مما يندر وجوده . فكانت لذلك نفيسة قيمة . وكان الخانجى شيخ الوراقين فى زمانه يكثر من مدحها والإشادة بذخائرها وقد اضطر صاحبها إلى بيعها فباعها متفرقة . وفى سنة ١٣٥٤هـ كانت هذه المكتبة فى خبر كان . وتفرقت ذخائرها وتبددت نفائسها .

وإذهاباً لما قد تحدثه مطالعة أخبار ضياع هذه المكتبات فى نفوس محبى الكتب . أختم مقالى هذا بذكر تسعة من هواة جمع الكتب عاشوا بمصر فى هذا القرن وكان كل منهم اسمه أحمد . وقد رتبتهم على سنى وفياتهم وذكرت مآل مكتبة كل منهم ما عدا مكتبتين لم يصل إلى علمى مآل كل منهما .

١ ـ أحمد أبو خطوة ـ الشيخ ـ القاضى الشرعى الحر الجرىء النزيه المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ وقد آلت مكتبته إلى دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٠ م كما ذكر طرازى فى مؤلفه .

٢ ـ أحمد الحسينى بك ـ المحامى المشهور المتوفى سنة ١٣٣٢هـ وصاحب المؤلفات الكثيرة ؛ وشارح كتاب الأم للإمام الشافعى رضى الله عنه . وقد آلت مكتبته أو معظمها على الأصح إلى دار الكتب المصرية ومنها شرح قسم العبادات من كتاب الأم فى أربعة وعشرين مجلداً مخطوطة انظر الأعلام الشرقية .

٣ – أحمد طلعت بك – الثرى المشهور المتوفى سنة ١٣٤٦ ﻫ وقد بلغت مكتبته أكثر من ستة وخمسين ألف مجلد آلت إلى الدولة . واختصت دار الكتب المصرية بأكثر من نصفها . ووزع الباقى على المكتبات العامة فى القاهرة والأقاليم .

٤ – أحمد تيمور باشا – المتوفى سنة ١٣٤٨ﻫ . العلامة المتقن . الفريد فى مثاله . آلت مكتبته إلى دار الكتب المصرية،وتمتاز بأنها قد لا يخلو منها مخطوط أو مطبوع من تعليقات صاحبها وتحقيقاته الدالة على طول باعه فى العلوم وسعة اطلاعه .

٥ – أحمد زكى باشا – المتوفى سنة ١٣٥٣ ﻫ والمشهور باسم شيخ العروبة وقد آلت مكتبته إلى دار الكتب المصرية .

٦ – أحمد دبوس بك – كان حياً سنة ١٣٥٤ وقد تبددت مكتبته كما سلف القول .

٧ – أحمد رافع الطهطاوى – السيد – محدث مصر – المتوفى سنة ١٣٥٥ ﻫ ولا أدرى مآل مكتبته .

٩ – أحمد محمد شاكر – الشيخ – القاضى الشرعى – المتوفى سنة ١٣٧٧ ﻫ كانت له مكتبة قيمة رأيتها ولا أدرى مآلها .

٩ – أحمد لطفى السيد باشا – رئيس المجمع اللغوى المتوفى سنة ١٣٨٢ ﻫ – وقد قرأت أن مكتبته ستوضع فى المتحف الذى أنشأته الدولة بالمنزل الذى ولد به بناحية برقين مركز السنبلاوين محافظة الدقهلية .

وهكذا نرى أن معظم مكتباتهم حفظ من الضياع بحمد الله تعالى . ولعل هناك سواهم ممن غابوا عن ذاكرتى . والله سبحانه وتعالى يجزى هذا السلف الصالح عنا أحسن الجزاء ويلحقنا بهم غير مفتونين ولا فاتنين . إنه ولى التوفيق . والهادى لأقوم طريق والصلاة والسلام على صفوة خلقه وعلى آله وصحبه وسلم .